

## الفصل الرابع

### نشأة الحكومة العسكرية (باكفو) فى إيدو

#### ١- الصراع على السلطة وموقعة سيكى جاهارا :

اشتهر عن طوكوجاوا إيباسو فى التاريخ اليابانى أنه استطاع التهام كعكة التوحيد التى صنعها كلاً من الزعيمين السابقين عليه وهما نوبوناجا وهيديوشى دون أدنى مجهود يذكر منه ، وفى الحقيقة إن فى هذا القول الكثير من التجنى على إيباسو وكفاحه ، فمنذ بدء حروب نوبوناجا من أجل توحيد البلاد كانت أيضا لإيباسو صولات وجولات عديدة. فهو تارة يقف بجانب نوبوناجا فى حروبه ضد خصومه ، مثل إرساله جيش كبير يعاون نوبوناجا فى حربه ضد عشيرتى أساى وأساكورا فى موقعة أنى جاوا Anegawa وذلك فى عام ١٥٧٠م. ومن أجل أن يقترب أكثر وأكثر استطاع تزويج ابنه البكر من ابنة نوبوناجا وكانت تدعى طوكى هيمى ، وقد استعمل أيضا مكره الذى اشتهر به ، فعندما قتل زعيم الوحدة نوبوناجا على يد تابعه ميتسو هيدى ابتعد عن مدينة ساكاي القريبة من الأحداث متجنباً الصدام مع ميتسو هيدى ، فذهب بعيداً إلى منطقة نفوذه فى طوطومى (غربى محافظة شيزوأوكا الحالية) وأثناء انشغال هيديوشى فى حروبه ضد أعدائه من أجل اعتلاء مكانة سلفه العظيم نوبوناجا ، استطاع إيباسو أن يمد نفوذه إلى المنطقة الساحلية الواقعة على المحيط الهادى والتى تقع فى الجزء الجنوبى من

منطقة منتصف اليابان، وهي تضم محافظة شيزوأوكا وأيتشى ومى وجزء من محافظة جيفو الآن (Tokai Chiho).

وبعد ذلك وفي عام ١٥٨٤م دخل فى حرب ضد هيدىوشى من أجل القبض على مقاليد الأمور فى البلاد وتوحيدها تحت إمرته وذلك فى موقعى كوماكى Komaki وناجا كوتى Nagakute، ولكن لم يحسم الأمر فى هاتين الموقعتين لأى من الطرفين.

ثم تم عقد الصلح بينهما، بل إن إيباسو انخرط فى نظام هيدىوشى بعد ذلك. والأكثر من ذلك فقد عقد إيباسو زواجا سياسيا مع هيدىوشى حيث تزوج من أخته الصغرى والتي كانت تدعى أساهى هيمى. وحتى يأمن الطرفين جانب كل من بعضهما البعض تبادلوا الأسرى فيما بينهما حيث أرسل هيدىوشى والدته وكانت تدعى أوماندوكورو Omandokoro لإيباسو كرهينة وأرسل إيباسو ابنه هيدى تاكا لهيدىوشى كرهينة أيضا. وبعد ذلك ظل إيباسو بولاءه الظاهرى فقط نحو هيدىوشى، حتى إن الأخير كان دائما ما يطلق عليه «السيد إيباسو الرجل الوفى».

وفى خضم إخضاع هيدىوشى للمقاطعات الغربية كان إيباسو آنذاك فى مواجهة مع عشيرة هوجو فى أوداوارا (جنوب غرب محافظة كاناجاوا)، ولكن بعد سقوط هذه العشيرة القوية على يد هيدىوشى فى عام ١٥٩٠م انتقل إيباسو بنفوذه إلى المنطقة الشرقية (Kanto)، وكذلك استطاع حيازة إقطاعات شاسعة ولذلك يعتبر سقوط هذه العشيرة نقطة تحول كبيرة بالنسبة لهيدىوشى وإيباسو على السواء، فقد استطاع بذلك هيدىوشى أن يكمل عملية التوحيد على أكمل وجه، واستطاع إيباسو أن يجعل من المنطقة الشرقية معقلاً لنفوذه وهو لذلك سوف يؤسس عاصمته إيدو فى هذه المنطقة فيما بعد.

قام إيباسو بتوسيع وتضخيم قلعة أيدو والتي سوف يتخذ منها قاعدة انطلاق لنفوذه، وعمل أيضا على تحسين مرافق المدينة، وذلك بإنشاء قناة مياه كاندا التي كانت تمد المدينة بالمياه العذبة، وفي ما يتعلق بإحكام قبضته على محاربيه وتابعيه، فقد وضع صغارهم بالقرب من قلعة أيدو وأقطعهم الأراضي فى المنطقة التي حواليتها. أما كبارهم فقد أبعدهم إلى المقاطعات الأخرى التي كانت تحت سيطرته ونفوذه مثل طوطومي وسوروجا (كلاهما فى محافظة شيزوأوكا الآن) قاصداً من ذلك حماية أيدو وتأمينها، ومن أجل عمل هذا الإجراء كان على إيباسو أن يقوم بعملية مسح للأراضى حول قلعة أيدو.

هكذا استطاع إيباسو أن يدير الأمور فى مناطق نفوذه بحذق شديد منذ استطاع توسعتها، كذلك فقد استطاع أن يصبح على رأس مجموعة المستشارين الخمسة الكبار التي كونها هيدىوشى حين علم بقرب أجله. وبلغ من مكره وذكائه أن امتنع عن إرسال قواته فى الحملتين اللتين أرسلهما هيدىوشى عامى ١٥٩٢م - ١٥٩٧م لإخضاع كوريا، فاستطاع بذلك أن يدخر هذه القوات لمعارك حاسمة أخرى، ولم يتوقف سعى إيباسو عند تقوية دفاعات إقطاعاته وتنظيم الحياة بها وكذلك استعمال المكر فى إدخار قواته بل تعدى ذلك إلى محاولة كسب ود وحب كل الدايميوات وذلك بتقديم مختلف الخدمات والرعاية لهم فى كل المجالات تقريباً، ولذلك أطلق على إيباسو لقب الرجل الماكر لأنه كان يستعمل كل مهاراته لى يصل لما يريد.

وفى المقابل فإن الدايميوات الآخرين الذين ساندوا هيدىوشى فى حملته على كوريا قد تكبدوا خسائرا كبيرة مما أثر فى فاعلية قواتهم

ونتج عن اشتراكهم أيضا حدوث انقسامات بين الدايميوات المتحالفين نظرا لاختلاف وجهات نظرهم فى معالجة أمور الحرب فى كوريا كما أسلفنا القول. وهذا ما أدى بالتالى إلى إحداث ضربة قاسية فى نظام هيديوشى السياسى بعد موته.

ولم تكن قدرات ومهارات إيباسو وحدها التى مهدت له الطريق نحو تقلد مقاليد الحكم فى كل البلاد بعد التوحيد، بل كان القدر أيضا وكأنه يمهّد له طريق السيادة، فبعد موت هيديوشى لم يلبث أن مات أيضا مائيدا طوشى إيبه Maeda Toshiie فى العام التالى (١٥٩٩م) وهو الذى كان من بين أعضاء مجموعة الخمسة الكبار من يستطيع مواجهة إيباسو بندية، أما الثلاث الآخرون الباقون فقد عادوا إلى مقاطعتهم بعيدا عن مسرح الأحداث فى كيوطو، وبذلك خلت الساحة تقريبا لإيباسو إلا من تابع هيديوشى المخلص إيشيدا ميتسونارى Iishiida Mitsunari (١٥٦٠م - ١٦٠٠م) وهو أحد أعضاء اللجنة الأخرى التى كونها هيديوشى من أجل ضبط أمور الحكم فى نهاية حياته، وهى لجنة المسئولين الخمسة كما أسلفنا القول بأن ميتسونارى كان على رأس هذه اللجنة، وقد صمم ميتسونارى على مواجهة إيباسو معضدا فى ذلك موقف ابن هيديوشى هيدي يورى وراغبا فى استعادة نظام هيديوشى السياسى.

ومن أجل التحكم فى كل الدايميوات وإرهابهم وعلى الأخص ميتسونارى كان لابد لإيباسو أن يستعرض قوته ويقدم ضحية من أجل ذلك، وكان الطعم الذى قدمه إيباسو هو دايميو أيزو Aizu أوى سوى كاجى كاتسو Uesugi Kage Katsu (١٥٥٥م - ١٦٢٣م) الذى تحالف

مع ميتسو نارى من أجل إسقاط إيباسو، وسوف يُهزم كاجى كاتسو أمام إيباسو فى المعركة الحاسمة سيكى جاهاراو ولذلك خُفضت مخصصاته من مليون ومائتى ألف جوكو إلى ٣٠٠ ألف جوكو فقط.

على أية حال كان على إيباسو أن يواجه العديد من الدايميوات والمسئولين بعد موت هيدىوشى ومائيدا طوشى إيبه. فقد كان جميع أعضاء هيئة المستشارين الخمسة وهيئة المسئولين الخمسة أيضا يضع نصب عينيه صولجان الحكم، ولذلك حيكمت المؤامرات حول قلعة أوساكا وغيرها من الأماكن من أجل ذلك.

ولكن مهما كان من كراهية ومنافسة الدايميوات العظام لإيباسو فلم يكن ذلك يُقارن بكراهية وحقد إيشيدا ميتسو نارى عليه، خاصة وأنه كان على رأس هيئة المسئولين الخمس، وعليه تربع كل من الزعيمين بالآخر. وفى يوليو عام ١٦٠٠م هاجم ميتسونارى قلعة فوشيمى وبذلك بدأت الحرب الفعلية بين الطرفين، وفى ١٥ سبتمبر تقابل جيش الشرق بقيادة إيباسو وجيش الغرب بقيادة إيشيدا ميتسو نارى فى منطقة سيكى جاهارا التى تقع فى مقاطعة مينو (محافظة جيفو الآن)، وكان قوام جيش الشرق مائة وأربعة ألف جندى، أما جيش الغرب فكان قوامه خمس وثمانون ألف جندى.

ونظراً للعدد الكبير من الجنود الذين اشتركوا فى هذه الموقعة فقد كانت من أكثر المعارك شهرة فى التاريخ اليابانى الوسيط وذلك لشدة بأسها وحمية وطيسها، فقد بدأت المعركة فى الثامنة صباحا، وحتى الظهيرة لم يتحدد المنتصر من المهزوم؛ ولكن بسبب خيانة أحد محاربى الجيش الغربى وكان يدعى كوباياكاوا هيدى آكى Koboyakawa Hideaki

كانت الغلبة للمعسكر الشرقي بعد قتال عنيف، وكان من نتيجة انتصار جيش الشرق أن تم القبض على ميتسو نارى وعدد من أنصاره وتم إعدام ميتسو نارى ومعاونه كونيش يوكى ناجا Konishi Yukinaga (١٥٤٠م - ١٦٠٠م) وغيرهما فى كيوطو، وتم إبعاد أوكيتا هيدي إيبه Ukita Hideie (١٥٧٢م - ١٦٥٥م) وهو أحد أعضاء لجنة المستشارين الخمسة - إلى جزيرة هاتشيوجوجيما التى تبعد ٣٠٠ كيلو متر عن طوكيو، كذلك فقد تم مصادرة أراضى ٩٣ من الدايميوات الذين عاونوا جيش ميتسونارى، وكانت هذه الأراضى تمثل نحو ثلث كل الأراضى فى اليابان وتم تخفيض إقطاعات مورى تروموتو من مليون ومائتى ألف جوكو إلى ٣٧٠ ألف فقط، وإنزال إقطاعات أوى سوجى كاجى كانتو من مليون ومائتى ألف جوكو إلى ٣٠٠ ألف فقط، وعلى الجانب الآخر فقد تم مكافأة الدايميوات الذين ساندوا إيباسو فى حربه ضد الجيش الغربى بطريقة سخية لدرجة إقطاع صغار أتباع إيباسو أراضى خارج المنطقة الشرقية ومعاملتهم معاملة الدايميوات أنفسهم.

ولكن على الرغم من الانتهاء من الانتصار الساحق لعائلة طوكوجاوا فى معركة سيكى جاهارا، ومعاقبة العائلات والدايميوات والقواد المناوئين لها بتخفيض مخصصاتهم، إلا أن ما كان يقلق إيباسو ومؤيديه هو كيفية أعمال قبضته على كل أنحاء البلاد ووضع مقاليد الأمور بين يديه وهذا ما سوف نتعرف إليه فيما يلى من أحداث.

## ٢- نشأة الحكومة العسكرية فى إيدو :

كان انتصار إيباسو فى موقعة سيكى جاهارا بمثابة الخطوة الحاسمة الأولى من أجل إحكام قبضته على البلاد، ولكن كان عليه أن يقوم

بخطوات أخرى عديدة من أجل هذا الهدف الذى كان نصب عينيه منذ فترة طويلة، وقد تحققت الخطوة الحاسمة الثانية بحصوله على لقب سى إى تاى شوجون - القائد الأعظم قاهر البرابرة - فى فبراير ١٦٠٣م، فبحصوله على هذا اللقب الرفيع استطاع إيباسو أن يتحكم فى كل دايميوات اليابان وأن يصبح القائد الفعلى لهم، كذلك استطاع أن يستقل تماما عن نظام هيديوشى وعليه استطاع أن يكون له حق إعطاء الأمر لكل الدايميوات والمحاربين لخوض الحروب، وكان من ضمن أسباب تحكم إيباسو فى كل دايميوات اليابان إعلان عشيرة شيمازو من موقعهم فى كيوشو خضوعهم التام له، وإلى جانب ذلك فقد استأثر إيباسو بقلوب معظم الدايميوات بسبب رعايته لهم والقيام على شئونهم ولم يكن يبغى من وراء ذلك الخير للدايميوات، وإنما كان يبغى مؤازرتهم له من أجل إحكام قبضته على البلاد، ولذلك أطلق عليه لقب «العم الماكر» على أية حال فقد دانت معظم البلاد لإيباسو بالطاعة والولاء بعد أن قضى على غريمه إيشيدا ميتسو نارى فى موقعة سيكى جاهارا وغاب كذلك كل الساسة الأقوياء عن المسرح السياسى، ثم أسس إيباسو حكومته العسكرية فى إيدو وأصبح الشوجون الأعظم فى عام ١٦٠٣م، ولكنه لم يلبث أن تنازل عن هذا اللقب لابنه الثالث وكان يدعى هيدى تادا (١٥٧٩م - ١٦٣٢م) فى عام ١٦٠٥م أى بعد سنتين فقط من توليه لقب الشوجونيه الذى قصره على نفسه وأولاده فقط من بعده، ثم ذهب إيباسو للمعيشة فى مقاطعة سونبو (محافظة شيزو أوكا) ولكن بقيت مشكلة تۇرق مضجع إيباسو، وهى خشيته أن يطالب ابن طويطومى هيديوشى الصغير السن - وكان يدعى هيدى يورى (١٥٩٣م - ١٦١٥م) حيث كان آنذاك ما

يزال في الثانية عشر من عمره - بحقه في الحكم إذا ما كبر. ولم يكن هيدويورى برغم صغر سنه خالى الوفاض من الممتلكات حيث كان يتحكم في ثلاث مقاطعات كبيرة في غرب البلاد وهي ستسو Setsu وكاواتشى Kawachi وإيزومى Izumi، هذا إلى ما يزيد عن ٦ مليون ونصف المليون جوكو من الأرز بما يعنى أنه من الطبقة العليا من الديقميوات، فكان برغم قبض إيباسو على مقاليد الحكم يعتبر الوريث الوحيد لنظام هيدويوشى، ولذلك عمل إيباسو على أن يقطع الأمل على هذا الصبي وأمه يودو جيمى Yodogimi فقام بإصدار فرمان يورث بمقتضاه منصب الشوجون في عائلة طوكوجاوا فقط كما أسلفنا القول.

ولكن بمرور الوقت وعندما أصبح هيدوى يورى في العشرين من عمره زاد أمل معسكر هيدويوشى في استرجاع قبضتهم على الحكم خاصة أن إيباسو كان قد وصل إلى السبعين من عمره ولذلك كان الأمل معقودا أكثر على شاب قوى في العشرين من عمره، هذا إلى جانب الأموال الوفيرة التى كانت بحوزة معسكر هيدويوشى، وفي هذه الأثناء وقعت حادثة نقوش جرس معبد هوكوجى في أغسطس ١٦١٤م، وهذا المعبد قام بإنشائه طويوطومى هيدويوشى ولكنه تعرض لزلزال عنيف فى عام ١٥٩٦م فتهدم تماما ثم عمل إيباسو على إقناع ابن هيدويوشى وهو هيدوى يورى من أجل إعادة بناء هذا المعبد، ولم يكن إيباسو حسن النية وإنما كان يريد من وراء ذلك إفلاس هيدويورى وعائلة طويوطومى بشكل عام من وراء بناء مثل هذا المعبد الضخم، وبالفعل تم بناء معبد هوكوجى الضخم وقبل إزاحة الستار عن الجرس الضخم الذى يميز قاعة تمثال بوذا العملاق حدثت المشكلة، حيث جاءت كلمات النقوش المنقوشة على هذا الجرس

تمجد وتهجل من عائلة طويوطومي وتحقر من شأن إيباسو وعائلته وذلك حسبما رأى بعض رجال الباكفو مما أغضب إيباسو أشد الغضب.

وحتى تتجنب عائلة طويوطومي غضبة إيباسو حاولت قدر استطاعتها نفي هذه التهمة عنها، ودافعت عن نفسها معلنة أنها مجرد نقوش معتادة، وليس من نية عائلة طويوطومي التحقير من شأن إيباسو وعائلته على الإطلاق، واندعشت أرملة الزعيم طويوطومي يودو جيمي لهذه الحجة الواهية من قبل الباكفو والتي كانت تتوجس خيفة من وراثتها، ولذلك بعثت لإيباسو برسول للمكان الذى كان يقطن به وهو مقاطعة سونبو (Sunpu) وهى محافظة شيزو أوكا الحالية كى تشرح له الأمر على حقيقته، وكان هذا الرسول هو تابع طويوطومي المخلص كاتا جيرى كاتسو موطو (Katagiri Katsumoto) (١٥٥٦م - ١٦١٥م) وكان أحد المحاربين المشهورين بشجاعتهم، وذاعت شهرته فى موقعة شيزوجاتاكى Shizugatake التى انتصر فيها طويوطومي على غريمه شيباتا كاتسو إيبه (Shibata Katuie) (١٥٣٠م - ١٥٨٣م) من أجل تحديد من يرث الزعامة بعد أودا نوبوناغا، وذلك فى عام ١٥٨٣م، ولكن هذا المبعوث لم يستطع مقابلة إيباسو ولكنه أبلغ بما يفكر به إيباسو وهو أن يرحل ابن طويوطومي عن قلعة أوساكا أو يبعث بأمه يودو جيمي كرهينة فى إيدو عاصمة الباكفو، وعليه عاد كاتسو موطو إلى أوساكا يحمل معه فشله فى إقناع إيباسو بالعفو عن عشيرة طويوطومي وأتباعها.

وفى أوساكا كان الصراع بين وجهتى نظر:

الأولى: ويتبناها كاتسو موطو والذى يرى أنه لا بد من الخضوع لأوامر إيباسو وعدم اللجوء للحرب ربما لما رآه من السطوة والقوة التى يتمتع بهما إيباسو بعد مشواره الطويل من أجل إحكام قبضته على البلاد.

أما الثانية : فكان يتزعمها أونوهاروناجا Ono Harunaga (؟ - ١٦١٥ م) فكانت ترمى إلى تحدى إيباسو ومحاربتة حتى لا يتجرأ على عشيرة طويوطومي ، وبالفعل آثر الأول أن يركن إلى السلامة فخرج من قلعة أوساكا وذهب ليمكث في قلعة خاصة به في مقاطعة إيباركى القريبة من أوساكا.

أما معسكر طويوطومي الموجود في أوساكا فقد عقد العزم على مواجهة إيباسو عسكرياً ، وأعد العدة بجيش قوامه مائة ألف محارب من بينهم محاربين متقاعدين . وما أن وصلت هذه الأنباء إلى إيباسو حتى فرح بها أيما فرح وكأنه وجد الفرصة والحجة لهاجمة البقية الباقية من عشيرة طويوطومي وأعوانه حتى يقضى على آخر معقل ينافسه . وكان إيباسو قد تخطى السبعين من عمره آنذاك ولكنه انتفض كمحارب صغير السن شاهرا حسامه وأمرا قواته بالخروج لحرب عشيرة طويوطومي ، وكان قوام جيشه الذى أعده من أجل هذه المعركة يتجاوز المائتى ألف جندى .

ومن أكتوبر ١٦١٤ م إلى ديسمبر من نفس العام قام إيباسو بمهاجمة قلعة أوساكا الحصينة ولكنه لم يستطع اختراقها ، ثم سرعان ما توصل مع الجانب الآخر إلى هدنة مؤقتة ، وهذه الفترة تعرف فى تاريخ عصر إيدو بمعسكر أوساكا الشتائى ، وفى هذه المرة أيضا استخدم إيباسو مكره المعروف واستطاع حيك معاهدة سلام كل موادها لصالحه وأصبحت كأنها شرك للمعسكر المضاد ، بل إنها لم تخرج عن كونها معاهدة غير مكتوبة ولم يوقع عليها الطرفان وبسبب هذه الخديعة من إيباسو تقلص وجود معسكر طويوطومي فى البرج الرئيسى لقلعة أوساكا مما أدى إلى ضعف موقفهم ، وزاد من غضب قواد معسكر أوساكا الأمر الصادر من إيباسو بطرد أهم شخصيات هذا المعسكر من قلعة أوساكا.

وبعد عدة شهور قام جيش الباكفو وقوامه ثلاثين ألف جندي بالهجوم على قلعة أوساكا وذلك فى شهر مايو ١٦١٥م، وبالفعل تم سقوط قلعة أوساكا تماما وانتحر هيدي يورى ابن طويوطومى وكذلك والدته، وتم إنقاذ الأميرة سنهيمى Senhime (١٥٩٧م - ١٦٦٦م) فى آخر لحظة قبل أن تحترق، وهذه الأميرة هى زوجة هيديورى المنتحر وحفيدة إيباسو فى ذات الوقت وكانت قد تزوجت من هيديورى زواجا سياسيا ولم تكن تجاوزت السابعة من عمرها، والشئ المؤسف أن حريق قلعة أوساكا لم يتم بيد إيباسو وجنده بل تم عن طريق الخائنين من معسكر هيديورى وكان ذلك فى الثامن من مايو، وبموت هيديورى ووالدته تم إعلان نهاية عشيرة طويوطومى وهذا ما كان يريده إيباسو الماكر ولتخلو ساحة حكم اليابان له ولأولاده وأحفاده من بعده لمدة تزيد عن ٢٦٠ عامًا.

على أية حال انتهى معسكر أوساكا الصيفى نهاية مأساوية بالنسبة لعشيرة طويوطومى، ودانت البلاد بالطاعة التامة لإيباسو وأبنائه، وسرعان ما أصدرت الباكفو فى شهرى يونيو ويوليو عدة فرامانات من شأنها إحكام السيطرة على الدايميوات والنبلاء على السواء، بل إن هذه الفرامانات جاءت للسيطرة على الإمبراطور ذاته، وبذلك تم إحكام سيطرة الباكفو على كل القوى التى يمكنها معارضتها.

وبانتهاء أحداث معسكر أوساكا الصيفى واختفاء أى مظاهر معارضة الباكفو تم تغيير اسم التقويم فى اليابان من كيتشو إلى جننا Genna وإضافة كلمة إنبو Enbu والكلمة الأولى تعنى السلام والثانية تعنى ترك السلاح أى تم الابتعاد عن استخدام السلاح وانتهاء الحروب (Genna Enbu) لتبدأ فترة طويلة من السلام فى كنف عشيرة طوكوجاوا كما أسلفنا القول.

وفى أبريل من العام الثانى من جننا (١٦٦٦م) ترك إيباسو هذا العالم بعد رحلة طويلة من الكفاح حيث وصل إلى أعلى مرتبة فى اليابان تاركًا لأولاده وأحفاده دولة قوية متماسكة وموحدة، وكان سبب الموت سرطان بالمعدة، وتم دفنه فى جبل كونو Kunozan بمحافظة شيزو أوكا، وفى العام التالى (١٦٦٧م) تم نقل جثمانه إلى جبل نيكو Nikkozan وأنعم عليه الإمبراطور بلقب رفيع يجعله أقرب للآلهة وتم بناء معبد طوشوجو Tōshōgu من أجل عبادته وتبجيله، وما زال هذا المعبد الرائع الزخارف يعج بالزوار والسياح إلى يومنا هذا، ويعتقد الكثير من اليابانيين أن وجود إيباسو فى هذا المعبد الرهيب جعله وكأنه إله ظل يحرس حكومة الباكفو وما حولها ويعطيها من بركته وحمايته ما يكفل لها الأمان طوال ما يقرب من ثلاثمائة عام.

ومن الجدير بالذكر أن هذا المعبد الفخيم تم بناؤه فى عهد الشوجون الثالث أيبى متسو Iemitsu (١٦٠٤م - ١٦٥١م) والذى تولى منصب الشوجونية فى عام ١٦٠٣م، وتكلف بناؤه ٥٦٨ ألف ريو من الذهب.

### ٣ - قلعة إيدو ومركزية الباكفو :

بدأت الحكومة العسكرية فى إيدو بداية قوية جداً ربما تذكرنا بمركزية حكومة الدولة القديمة فى مصر الفرعونية ومدى قوتها حتى إنها استطاعت فى وقت مبكر من التاريخ بناء أهرامات عظيمة ما زالت تبهر الملايين.

ونحن هنا لسنا بصدد شرح كيف بنيت هذه الأهرامات إلا أننا نذكر

فقط أن الأوامر صدرت من الفرعون إلى كل حكام الأقاليم لكي يشتركوا ويتعاونوا مع الدولة فى بناء هذه الأهرامات وكأنها مشروع قومى لابد للجمع الإسهام فيه ، كذلك كان الحال عند بناء قلعة إيدو التى تكون فى معظمها القصر الإمبراطورى الحالى فى قلب العاصمة طوكيو.

تم البدء فى إنشاء قلعة إيدو فى عام ١٦٠٤م بإدارة وتصميم المحارب طودو تاكا طورا (١٥٥٦م - ١٦٣٠م) وقد اشتهر هذا المحارب بإسهاماته العديدة فى كثير من الإنشاءات الخاصة بالدولة وقد تعاون معه الكثير من الدايميوات خاصة دايميوات غرب اليابان الذين بلغ عددهم سبعين دايميو.

وقبل بدء الإنشاء كان على المسئولين أن يحفروا المجرى المائية اللازمة لنقل الأحجار التى تم إحضار معظمها من مدينة ساجامى فى محافظة كاناجاوا ومدينة إيزو فى محافظة شيزوؤوكا ، وقامت أكثر من ثلاثمائة سفينة تابعة للعديد من الدايميوات بنقل هذه الأحجار إلى خليج إيدو. وقد بلغت مساحة القلعة ومبانيها والأراضى التابعة لها ٢ مليون ٦٤٤ ألف متر مربع ، وهى بذلك كانت تعد أكبر قلعة فى اليابان وتعادل ضعف قلعة أوساكا فى المساحة .

ولم تستخدم قلعة أيدو كحصن حصين للشوجون وعائلته وأعوانه فقط، بل إنها ضمت أيضا مؤسسات وهيئات حكومية يقوم بالعمل بها الكثير من موظفى الحكومة وغيرهم من العاملين ، وحول القلعة انتشرت قصور وبيوت الدايميوات والأغنياء.

وقد مورست سياسة الدولة من قلعة أيدو فقد كان بها مقرات ما يوازى الآن رئيس الوزراء ورئيس المحكمة العليا ومحافظ العاصمة وغيرها من الوظائف الهامة فى البلاد.

وبسبب ضخامة قلعة إيدو وملحقاتها من مباني وخنادق وممرات داخلية وخارجية، فلم يكتمل البناء تماما إلا في عام ١٦٣٦م، وذلك في عهد الشوجون الثالث إيميتسو.

وبالطبع لم يكن التغيير الذى حدث فى بداية عصر إيدو فى شكل القلاع وضخامتها فقط، فقد كان التغيير فى شكل المجتمع اليابانى ووضع الإنسان فيه أكبر وأوسع بكثير من ذلك، فقد عمل طوكوجاوا إيباسو على إحداث هذا التغيير بالتشاور مع عدد من الشخصيات الهامة فى أوائل هذا العصر، ومن أشهرهم هوندا ماسازومى Honda Masazumi (١٥٦٥م - ١٦٣٧م) وكان يعد من القادة المقربين لإيباسو، والراهب إيشين صودن Ishin Sūden (١٥٦٩م - ١٦٣٣م) والتاجر الغنى تشايا شيروجيرو Chaya Shirōjirō الذى كان تاجراً وسياسياً فى ذات الوقت. وكان معهم أيضاً الرحالة الإنجليزى أدامز William Adams (١٥٦٤م - ١٦٢٠م) والذى يعتبر أول إنجليزى تطأ قدمه اليابان واستطاع التقرب من إيباسو الذى أقطعه منطقة مينورا هيمى فى مقاطعة ساجامى (محافظة كاناجاوا).

هؤلاء جميعاً وغيرهم اتفقوا على تقسيم المجتمع إلى أربع طبقات رئيسية على أساس طبقي مقلدين فى ذلك المجتمع الطبقي الموجود فى إنجلترا آنذاك، وجاء على رأس هذا المجتمع المحاربين (Shi) ثم المزارعين (Nō) ثم الحرفيين والصناع (Kō) ثم يأتى فى ذيل الترتيب التجار (Shō)، ولذلك سمي هذا النظام بـ شينوكوشو Shinōkōshō الذى ظل مطبقاً طوال عصر أيدو. وعليه فإنه إذا تحددت طبقة الشخص الذى ينتمى إليها فهى بالتالى تورث لأبنائه وأحفاده من بعده

ولا يستطيع تغييرها وفق إرادته. وتحت هذه الطبقات الأربع تأتي الطبقات الدنيا في المجتمع مثل الجزارين والدباغين والذين يقومون بتنفيذ أحكام الإعدام في المجرمين بعد ذلك وهؤلاء تم تجاهلهم في النظام الطبقي المذكور.

ثم أتى دور الدايميووات ففى التغيير فقامت مجموعة المستشارين بقيادة إيباسو إلى تقسيم الدايميووات إلى ثلاث مجموعات. المجموعة الأولى وهى المجموعة التى تمت بصلة قرابة لإيباسو وتم تولية هذه المجموعة المقاطعات المتميزة مثل أوارى (محافظة إيتشى) وكىي Kii (محافظة واكاياما) وميتو (محافظة إيباراكى) وهذه المجموعة أطلق عليها شينبان Shinpan أى مقاطعات الأقارب ثم بعد ذلك أتى فى المرتبة التالية مجموعة فوداى Fudai وهم هؤلاء الدايميووات الذين ناصروا إيباسو فى حروبه ضد أعدائه ومنافسيه من أجل تحقيق الوحدة الشاملة وتكوين حكومة الباكفو وبعد ذلك جاءت مجموعة توزاما Tozama وهم هؤلاء الدايميووات الذين انضموا لمعسكر إيباسو ولكن بعد انتصاره فى موقعة سيكى جاهارا فى عام ١٦٠٠م، وبالطبع لم يكن حظ النوع الثالث من الدايميووات مثل النوعين السابقين يتمتع بمقاطعات مميزة أو وضع جيد فى حكومة الباكفو نظرا لأنهم خضعوا لإيباسو بعد انتصاره ولم يعاونوه فى حروبه ولذلك فقد تم توليتهم على مقاطعات بعيدة عن عاصمة الباكفو فسى أيدو كذلك لم يلعب التوزاما دايميو أدوارا هامة فى الباكفو مهما بلغت درجة حجم وقوة المقاطعة التى تولوا إدارتها.

ثم واصل ابن إيباسو الثالث وهو هيدى تادا Hide tada (١٥٧٩م - ١٦٣٢م) ما بدأه والده من نشاط فى إحداث تغييرات

جوهريّة في حياة الإنسان الياباني اجتماعيا وسياسيا. وقد تولى هذا الشوجون الحكم في أثناء حياة أبيه. وقد عمل هيدي تادا على حماية الباكفو وإصدار القوانين التي تحكم السيطرة على المحاربين والدايميوات. ففي عام ١٦١٥م جمع هيدي تادا جميع الدايميوات في قلعة فوشيمي القريبة من العاصمة كيوتو، وألقى عليهم ما أطلق عليه قواعد المحاربين Bukeshohatto لأنه من المفروض أن يكون الدايميو (حاكم الإقليم) محاربًا في الأصل. وهذه القواعد وبالأحرى القيود كان عددها ثلاث عشرة، وكلها تصب في كيفية التحكم في الدايميوات، وكان أهم هذه القيود هي منع الدايميو من إنشاء القلاع أو إصلاحها إلا بأمر من الشوجون. وذلك حتى لا يستطيع الدايميو أن يستخدم هذه القلاع القوية للوقوف في وجه الشوجون، كذلك لم يكن يسمح للدايميو بالزواج إلا بأمر من الباكفو أيضًا، وذلك لأن الباكفو كانت تعتقد أو تخشى من أن بعض الزيجات قد تجلب عليها المتاعب لأن عن طريقها يمكن تعضيد موقف الدايميو سياسيا وعسكريا وكذلك اقتصاديا مما يجعله يستطيع مقاومتها. وبالطبع كان هناك العديد من الدايميوات الذين يخرقون هذه القواعد ويقدمون على الزواج أو بناء القلاع وإصلاحها أو غير ذلك من الأشياء التي منعتها الباكفو بدون إذنها. ولذلك عملت الباكفو على التلصص والتجسس على تحركات ونشاط الدايميوات في مختلف المقاطعات. وجمعت المعلومات عن طريق جواسيسها.

فمثلاً في عام ١٦٢٢م بعث الشوجون هيدي تادا ببصاص إلى قلعة أوتسونوميا في محافظة توتشيجي، وهذه القلعة كانت معقل الدايميو هوندا ماسازومي والذي كان يعد من القادة المقربين من الشوجون

الأول إيباسو، وبرغم ذلك فقد شك هيدى تادا فى هذا الدايميو بأنه يحيك مؤامرة ضد الباكفو لأنه أعد سقوفاً حديدية من نوع خاص يستطيع من خلال إسقاطها أن يقتل أعداءه بسهولة. وقد نقل المعاونون الجدد للشوجون هيدى تادا أن هوندا يخطط من أجل اغتياله فى طريق عودته من زيارة قبر والده إيباسو فى نيكو عن طريق هذا السقف المتحرك. فغضب الشوجون غضباً شديداً وأصدر أوامره على الفور بمصادرة أموال ومخصصات هوندا، وكذلك خلع ألقابه بل وإلحاقه بعائلة ساتاكي Satake فى مقاطعة دوا (محافظة ياماجاتا وأكيتا) الواقعة فى أقصى شمال جزيرة هونشو، ومن الجدير بالذكر أن هذه العشيرة من العشائر التى هُزمت فى موقعة سيكى جاهاارا ولذلك نالت العقاب من الباكفو. وبذلك الإجراء يكون مصير هوندا قد أصابه الكثير من التدنى، والحقيقة أن ما حدث لهوندا لم يكن سوى مؤامرة من معسكر المعاونين الجدد للشوجون بزعامة دوى توشيكاتسو Doi Toshikatsu (١٥٧٣م - ١٦٤٤م) وساكاى تادايو Sakai Todayo وذلك من أجل إسقاط هوندا والاستيلاء على المكانة الرفيعة التى كان يحظى بها فى الباكفو منذ أيام إيباسو. وهكذا تحولت القوى من المعسكر القديم فى الباكفو إلى قوى جديدة.

. وحادثة إقصاء المحارب الشهير فوكوشىما ماسانورى Fuku Shima Masanori (١٥٦١م - ١٦٢٤م) عن حكمه لمقاطعة هيروشىما بسبب إقدامه على إصلاح وترميم قلعة هيروشىما دون الحصول على إذن مسبق من الباكفو هى من أشهر حوادث عقاب الدايميوات لخروجهم عن تعليمات الباكفو. وهذا الدايميو يعد من الدايميوات الأغنياء جدا فقد كانت مخصصاته تبلغ نصف مليون جوكو من الأرز.

وبرغم ذلك فقد حرم من هذه المخصصات ثم أبعاد إلى منطقة أخرى بعيدة. ومن أشهر أمثلة عقاب الدايميوات بسبب زواجهم بدون إذن الباكفو ذلك عندما تزوج داييميو أوداوارا (مدينة تقع جنوب غرب محافظة كاناجاوا)، فقد تمت مصادرة أموال هذا الداييميو بسبب إقدامه على الزواج بدون تصريح من الباكفو.

وفي عام ١٦٢٣م تنازل الشوجون هيدي تادا عن منصب الشوجونية لابنه الثاني إييميتسو Iemitsu (١٦٠٤م - ١٦٥١م)، وبدلاً من ذلك تولى الوالد منصب الشوجون المتقاعد المستشار الأكبر (Ogoshō) وذلك بعد أن أرسى قواعد الشوجونية وأصدر عدة فرمانات تحد من سطوة المحاربين والدايميوات كما أسلفنا الذكر.

تولى إييميتسو الشوجونية لمدة ٢٨ عاماً (١٦٢٣م - ١٦٥١م) أى منذ تنازل له والده عن هذا المنصب الرفيع وحتى وفاته فى عام ١٦٥١م ويعد عهد إييميتسو من أهم عهود عصر طوكوجاوا الطويل، فقد قام هذا الشوجون بإصدار عدة فرمانات عُدت من أهم فرمانات والقوانين التى أسهمت إلى حد كبير فى إرساء قواعد عصر طوكوجاوا وإحداث انتعاشة ونهضة قويتين. ولكن كانت الانطلاقة الحقيقية لإييميتسو من أجل تنفيذ سياسته القوية فى القبض على مقاليد الحكم وإصدار فرمانات القوية. بعد أن توفى والده هيدي تادا فى عام ١٦٣٢م، حيث كان الأخير بحكم المنصب القوى الذى كان يتولاه حتى بعد تركه الشوجونية لا يزال له تأثير على اتخاذ القرارات فى حكومة الباكفو، ذلك برغم أن الشوجون الثالث إييميتسو تمتع بشخصية قوية واعتبر نفسه مولوداً ليكون شوجوناً.

انصب اهتمام إييميتسو أول ما انصب على التوزاما دايميو، وكان هذا الاهتمام بسبب الوضع المتميز الذي كان هؤلاء الدايميوات يتمتعون به منذ عهد نوبوناغا وهيديوشى، ولذلك نجد الكثير منهم يمتلكون المخصصات والممتلكات ما لم يكن يمتلكه الفوداى دايميو، وذلك رغم أن مقاطعاتهم كانت فى الغالب بعيدة عن عاصمة الباكفو أيدو، وقد عمل إييميتسو على ألا يكون وضع هؤلاء الدايميوات متميزا عن الفوداى دايميو، حتى إنه توعدهم بمحاربتهم بمجرد توليته الشوجونية ولكنه أعطى لنفسه فسحة من الوقت مدتها ثلاث سنوات كي يعد نفسه خلالها لحربهم لأنه لم يكن لديه تجربة الحرب قبل ذلك، ولكنه على أية حال كان مصمما على مقاومة غرور التوزاما دايميو، ويمثل هذه الثقة فى النفس بدأ إييميتسو عهده متخذًا عدة خطوات هامة من أجل تعضيد نظام طوكوجاوا الإقطاعى.

كان أول من تلقى نيران صرامة وغضب إييميتسو هو التوزاما دايميو كاطوتادا هيرو Katō Tadahiro (١٦٠١م - ١٦٥٣م) وكان من الدايميوات الأقوياء ذوى النفوذ، ولكن برغم ذلك فقد أبعدته عن مقر حكمة ومركز سلطته فى مقاطعة هيجو Higo (محافظة كوماموتو الحالية) والتي تقع فى جزيرة كيوشو فى أقصى جنوب اليابان إلى منطقة شوناي الواقعة فى مقاطعة دوا Dewa (محافظة ياماجاتا الحالية) فى أقصى شمال جزيرة هونشو أى أنها تبعد مئات الكيلومترات عن مقاطعته الأصلية وهذا بالطبع عقاب رادع لمثل هذا الدايميو القوى، ولم يقتصر هنا العقاب على تاداهيرو فقط بل نال آخرون نفس العقاب، فقد وصل عدد الدايميو من فئة التوزاما الذين تم عقابهم إما بطردهم من مناصبهم

أو بمصادرة مخصصاتهم إلى تسع وعشرين دايميو، أما الفوداي دايميو الذين تم عقابهم بنفس الطريقة فقد وصل عددهم تسعة عشر دايميو في عهد إبيميتسو.

وخلال عهد إبيميتسو تواصلت عملية تنظيم الجيش وتقويته ولذلك فقد أُلقيت أعباء عسكرية متزايدة على كل دايميوات اليابان سواء كانوا فوداي أو توزاما، واستطاع إبيميتسو في عام ١٦٣٤م أن يذهب إلى عاصمة البلاط الإمبراطوري في كيوتو مصطحبًا ما يزيد على ثلاثين ألف جندي، وهو في ذلك كان يريد أن يظهر قوة الدايميو العسكرية، ولم يكن أمام الدايميو وفرق الهاطاموتو (Hatamoto) وهؤلاء هم الفرق الحامية المباشرة للشوجون، وتأتي تسميتهم من أنهم المدافعون عن المعسكر الرئيسي للشوجون الذي يرفع أعلام الشوجونية، ولم يكن أمام الدايميوات أو فرق الهاطاموتو أو غيرهم من الفرق التي تليهم في المرتبة سوى إطاعة أمر الشوجون للخروج للحرب أو التدريبات حتى لا تُنتقص مخصصاتهم أو يُحرموا منها، ومن الأمثلة الشهيرة على معاونة الدايميوات للشوجون في أعمال الإنشاء عندما أرسل كاطوتادا هيرو حاكم هيجو - وذلك قبل استبعاده - بنحو خمسة آلاف من العمال من أجل الاشتراك في إنشاء البرج الرئيسي لقلعة أيدو وذلك في عام ١٦٢٢م.

وتتوالى إجراءات وفرمانات إبيميتسو من أجل إظهار قوة الباكفو وإخضاعه للدايميوات ومختلف أنواع فرق المحاربين، فيصدر في عام ١٦٣٥م بما يمكن تسميته بقانون المحاربين المعدل، وكان الشوجون السابق له هيدي تادا قد أصدر القانون الثاني والذي كان يتكون من ثلاث عشرة مادة، ولكن إبيميتسو أصدر فرمانه في تسع عشرة مادة وكانت

أهم وأشهر هذه المواد هي ضرورة دوام الدايميو وحاشيته عاما بعد عام فيما عرف بـ «Sankin Kōtai» كذلك ألزمت هذه المادة الدايميو أن يقيم في أيدو عاصمة الشوجونية بيوتا لزوجته وأولاده يمكنون فيها كرهائن، وهذا يعنى أن نصف دايميوات اليابان كان عليهم أن يترددوا في أبريل من كل عام على أيدو، أما النصف الآخر فكان يمكن في مقاطعته ينتظر دوره للاشتراك في هذه الطقوس التي كانت تكلف الدايميو أموالاً طائلة حيث كان موكبه لا يضم في أقل تقدير أقل من مائة تابع ويصل في أحوال كثيرة إلى عشرات المئات. وعلى الرغم من أن هذا الإجراء كان بمثابة عبء اقتصادى ثقيل على الدايميو ومقاطعته إلا أنه في نفس الوقت أوجد حالة من الرخاء الاقتصادى والاجتماعى الكبيرين في العاصمة إيدو نظراً لتجمع أعداد كبيرة من الوافدين من خارج إيدو إلى جانب البيوت والقصور الكثيرة التي كان على الدايميوات أن ينشئوها من أجل سكنى أسرهم وأتباعهم، كذلك كان لطول المسافة من مقاطعة الدايميو إلى العاصمة إيدو ما يتبعه من إنشاء محطات استراحة في الطريق بين العاصمة ومختلف المقاطعات، وهذا كان يعرف بالمحطات الثلاث والخمسين «Gojūsantsugi» والتي تناول أحوالها كتاب كثيرون في أعمال أدبية مختلفة ممتعة.

وكان من ضمن الأعمال التي يقوم بها الدايميوات الحاجين إلى إيدو كنوع من أنواع الخدمة العسكرية حراسة الأبواب الكثيرة لقلعة إيدو العظيمة وكذلك التحرك لإطفاء النيران إذا ما اشتعلت في ركن من أركان القلعة وغيره من الأعمال الخدمية، وهكذا تأكدت علاقة التبعية التامة للدايميوات للشوجون الأول إيباسو وحتى الشوجون الثالث إيميتسو،

أو ما يمكن القول بتبعية المقاطعات (Han) للحكومة العسكرية في إيدو (Bakufu) .

ومن ضمن المواد التي ضمها فرمان إيميتسو لتقييد قوى الدايميوات والمحاربين هو منعهم من تشييد السفن الكبيرة الحجم وكذلك عدم الزواج بدون تصريح، وعدم بناء أو إصلاح القلاع دون إذن كما في فرمان هيدي تادا. وقد تغير مضمون هذه الفرمانات قليلاً مع تغير الشوجون، إلى أن أتى الشوجون الخامس تسونايوشي Tsunayoshi (١٦٤٦م - ١٧٠٩م) - وهو الابن الرابع لإيميتسو - فقام بتوحيد كل الفرمانات السابقة التي تحد من قدرات الدايميوات والمحاربين وأضاف إليهم كذلك اتباع عشيرة طوكوجاوا أيضاً، وبعد ذلك لم يتوقف الأمر على الشوجون فقط بل إن الدايميوات قلدهه أيضاً فى ذلك، وأصدر العديد منهم قوانين وفرمانات للتحكم فى أتباعهم.

ولم يسلم البلاط الإمبراطورى والنبلاء ورهبان المعابد من سطوة الشوجون، فقد أصدر قانوناً خاصاً عام ١٦١٥م أى عندما كان إيباسو لم يزل حيا وله تأثير على اتخاذ القرار فى حكومة الباكفو، وهذا القانون يرغم الإمبراطور على وضع كل جهوده من أجل الاستزادة من العلم ونظم الشعر ويبعده عن حلبة السياسة، وكانت تلك هى المادة الأولى من هذا فرمان (Kinchu Narabini Kugesho hattō) أما المادة الثانية فكانت تخص النبلاء ورهبان المعابد التى حُددت مهماتهم ومخصصاتهم وحتى ملابسهم، وغير ذلك من الأمور التى تتعلق بالنبلاء والمعابد، وقد تم تطبيق هذا القانون بكل الحزم والشدة فى عهد الشوجون الثالث إيميتسو، ففى عهده فقدت العديد من المعابد تلك العزب والأراضى

التي كانت بمثابة العمود الفقري لاقتصادها، ومن ثم فقد فقدت الكثير من سطوتها التي اعتادت عليها، وكان من ضمن بنود هذا الفرمان إنشاء معبد رئيسي لكل طائفة ويتبع هذا المعبد معابد أخرى صغيرة تكون تحت سيطرة ومراقبة المعبد الرئيسي وذلك حتى لا ينفرد عقدها.

#### ٤ - بدايات الباكفو والعلاقة مع الخارج :

فى أبريل من عام ١٦٠٠م حضرت إلى اليابان أول سفينة هولندية وكان ظهورها فى مقاطعة بونجو (محافظة أويتا الحالية). وكان على ظهر هذه السفينة بحار إنجليزى يدعى وليام آدامز وهو ذلك الرجل الذى اتخذه فيما بعد إيباسو مستشاراً له والذى تحدثنا عنه آنفاً فى معرض حديثنا عن إقرار النظام الاجتماعى الجديد فى اليابان (Shinōkōshō) وكذلك استعان إيباسو بزميل آدامز الهولندى يان يوستن Jan Joosten (١٥٥٦م - ١٦٢٣م) وذلك من أجل التعرف إلى أحوال العالم وأوضاع النظم الاجتماعية والسياسية فى بلادهم.

على أية حال عندما علم إيباسو أن إنجلترا وهولندا لا يهتمها من المجيء إلى اليابان سوى التجارة ولا يريدان نشر الديانة المسيحية سره ذلك أيعا سرور، ورحب بوليام آدامز وزميله، ثم أمر بافتتاح وكالة تجارية لهولندا فى مدينة هيرادو (محافظة ناجاساكي) عام ١٦٠٩م، وفى عام ١٦١٣م وعلى أثر وساطة من وليام آدامز بين إيباسو وملك إنجلترا جيمس الأول تم السماح لإنجلترا بالتبادل التجارى فى ميناء هيرادو أيضاً.

وفى الحقيقة كان إيباسو فى مسلكه مع الأجانب مختلفاً كثيراً عن سلفه هيدىوشي، فقد كانت سياسته الخارجية تعتمد على الترحيب

بالدول الأجنبية ، وكان يهدف من وراء ذلك إنعاش التجارة الخارجية حتى يستطيع إنعاش الاقتصاد لحكومة الباكفو في إيدو وحاول إيباسو أيضًا إصلاح ما أفسده سلفه في علاقة اليابان بجارتها كوريا ، فجاءت لأول مرة إلى إيدو بعثة دبلوماسية كورية في عام ١٦٠٧م وتم عقد صلح بين اليابان وكوريا ، وكان هدف إيباسو من وراء الصلح مع كوريا هو أن تتوسط الأخيرة بينه وبين الصين لتصلح بين الطرفين ، ولكن هذا المسعى لم ينجح ، ومن ثم حاول إيباسو أن يجعل ريوكيو (أوكيناوا ) التي كانت تخضع ولو من الناحية الشكلية للصين ، أن تقوم بهذا الدور عوضا عن كوريا ، ولكن ريوكيو لم تعطى أذانا صاغية له . وهنا أوعز إيباسو إلى مقاطعة ساتاسوما (محافظة كاجوشيما الحالية) لأن تهاجم ريوكيو وتجعلها تخضع لإرادة الباكفو ولكن حاكم ساتسوما شيماطو إيبى هيسا Shimazu Iehisa (١٥٧٦م - ١٦٣٨م) أعاد العلاقة بين الصين وريوكيو كما كانت في السابق من أجل استعادة التجارة الخارجية مع الاثنين ، وبالفعل استطاعت عشيرة شيماطو الحصول على أرباح كبيرة عن طريق التجارة مع الصين وريوكيو.

وهكذا عجز إيباسو عن استعادة العلاقة الودية مع الصين ، ولكن برغم ذلك كان هناك ترحيب من جانب اليابان بالسفن التجارية الصينية التي ازدادت أعدادها عاما بعد عام ، وزاد كذلك عدد الصينيين الذين استوطنوا مدينة ناجاساكي اليابانية.

وإلى جانب ذلك بعث إيباسو برسائل عديدة إلى دول جنوب شرق آسيا مثل سيام (تايلاند) والهند الصينية وكمبوديا وشبه جزيرة ملاوى وغيرها من الدول ، مبديا رغبة أكيدة في إقامة علاقات ودية معها

جميعاً، وبالفعل جابت الكثير من السفن التجارية اليابانية هذه الدول،  
وعليه فقد تعمقت العلاقات بين هذه الدول وبين اليابان وحصلت الأخيرة  
على مكاسب كبيرة من خلال علاقاتها التجارية مع هذه الدول. وكان  
النصيب الأكبر من التجارة الخارجية اليابانية من نصيب كوريا، فقد  
استوردت اليابان منها الأرز والقطن والجنسج والجلود والكتب وغيرها،  
وفي المقابل صدرت اليابان لكوريا المعادن والبويات والبخور وغيرها.  
ونظراً لتوسع التجارة الخارجية اليابانية في بداية عصر الطوكوجاوا  
فقد عملت حكومة الباكفو على تنظيم والتحكم في هذه التجارة، فكان لا بد  
من إصدار تصاريح خاصة سميت بتصاريح الأختام الحمراء (shuinjo)، وهي تلك  
الأختام الخاصة بشوجونية إيدو وكانت تُعطى لأشخاص بعينهم لممارسة  
التجارة الخارجية مع الدول الأجنبية، وقد أصدرت حكومة الباكفو أكثر  
من ٣٥٠ تصريحاً من هذا النوع من التصاريح منذ عام ١٦٠٤م حتى عام  
١٦٣٥م، ولم تكن هذه التصاريح لطبقة معينة دون غيرها من الطبقات،  
فقد حصل عليها ما يقرب من ١٠٥ من الدايميوات وكذلك حصل عليها  
بعض التجار، ومن أشهر الدايميوات الذين حصلوا على ختم الشوجونية  
الأحمر حاكم ساتسوما الذي استرجع جزيرة ريوكيو (أوكيناوا) من تحت  
السيطرة الصينية والدايميو ماتسو أورا شيجينوبو Matsuura Shige  
Nobu (١٥٤٩م - ١٦١٤م) وأريما هارونوبو Arima Harunobu  
(١٥٦٧م - ١٦١٢م) وهو دايميو مسيحي انتحر في النهاية بطريقة  
الهاراكيري، ومن التجار اشتهر تاجر من مدينة ناجاساكي يدعى سوى  
تسوجو هيظو Suetsugu Heizo (١٥٤٦م - ١٦٣٠م) الذي كان له  
تجارة مع فيتنام وسيام، وهناك تاجر آخر من مدينة أوساكا يدعى

سوى يوشيماجو زائيمون Sueyoshimago Zaeon (١٥٨٨م - ١٦٣٩م)  
والتاجر تشاياشيرو جيرو Chayashuro Jiro (١٥٤٢م - ١٥٩٦م)  
الذى كان من المقربين من الشوجون الأول طوكوجاوا إيباسو وكان من  
مدينة كيوطو عاصمة البلاط الإمبراطورى آنذاك.

وكذلك اشتهر من نفس المدينة التاجر سومينوكورا ريو آى  
Sumino Kura Ryoi (١٥٥٤م - ١٦١٤م)، ومن مدينة إيسى Ise  
اشتهر التاجر كادويا شيتشى روبنى Kadoya Shichiroboni (١٦١٠م - ١٦٧٢م).  
ومن مدينة ساكاي كان هناك التاجر  
ناياسوكى زائيمون Nayasuke Zaemon (ميلاده ووفاته مجهولان)  
وقد نافست سفن هؤلاء التجار اليابانيين السفن التجارية الهولندية  
والصينية والبرتغالية، وكان من أهم المواد والبضائع التى حملتها من  
اليابان إلى الدول الأخرى الفضة والنحاس والحديد والسيوف والأوانى  
بأنواعها والمقصات والمراوح اليابانية التقليدية، وكذلك الملابس والكافور  
وعلى الأخص كان للفضة النصيب الأكبر حيث مثلت حوالى ثلث كمية  
الفضة المصدرة على مستوى العالم آنذاك.

وفى خلال ثلاثين عاماً من التجارة الحرة المزدهرة سافر ما يزيد على  
مائة ألف يابانى إلى مختلف دول العالم، ومن بين هؤلاء استوطن حوالى  
عشرة آلاف يابانى مختلف المناطق فى جنوب شرق آسيا. بل وقام  
هؤلاء اليابانيون بإنشاء ما أطلق عليه المدن اليابانية فى هذه الدول، وقد  
تمتعت بعض هذه المدن بشكل من أشكال الحكم الذاتى، وكان من أهم  
دول جنوب شرق آسيا التى استوطنها التجار اليابانيون لوسون (الفلبين)  
وسيام (تايلان) وبورما وفيتنام وكمبوديا وغيرها.

ولم يكن التجار هم فقط من استوطنوا دول جنوب شرق آسيا وأقاموا في المدن اليابانية السالف ذكرها، فقد ذهب إلى هناك أيضاً عدد غير قليل من النجارين والحدادين والنقاشين اليابانيين وغير ذلك من الصناعات والعمال اليابانيين المهرة، وإلى جانب هؤلاء العمال المهرة ذهب للحياة في هذه البلاد عدد غير قليل من المحاربين الذين قاوموا عائلة طوكوجاوا، وعليه لم يستطيعوا العيش في اليابان. كذلك هرب إلى هذه المدن الكثير من المسيحيين الذين لاقوا الأهوال على يد حكومة الباكفو بسبب إيمانهم بالمسيحية، وسوف يأتي الحديث عن هؤلاء المسيحيين اليابانيين بالتفصيل فيما بعد.

كذلك عاش في هذه المدن الكثير من هؤلاء اليابانيين الذين خدموا المستوطنين اليابانيين الذين عدوا بالآلاف وكذلك الذين خدموا السفن التجارية اليابانية التي كانت تذهب للتجارة مع مختلف بلاد جنوب شرق آسيا، وكذلك هؤلاء الذين عملوا في الوكالات التجارية اليابانية إلى جانب الجنود والبحارة.

ومن بين هؤلاء الذين عاشوا في المدن اليابانية التي انتشرت خارج اليابان - اشتهر اليابانيون في المدن اليابانية والتي كانت مقامة في مملكة سيام (تايلاند)، وبسبب شجاعتهم وأمانتهم تميزوا عن باقي الحراس، ولذلك عمل ما يقارب من ثمانمائة حارس من بين ألف وخمسمائة مواطن ياباني هم كل مجموع من عاش من اليابانيين الذين كانوا هناك، عملوا كحراس للقصر الإمبراطوري لملك سيام.

وكان زعيم اليابانيين في هذه المدينة هو ناجاماسا يامادا Yamada Nagumasa (؟-١٦٣٠م) الذي سافر إلى سيام في

عام ١٦١٢م، وقد حاز على ثقة وحب ملك البلاد بل وأعطاها أعلى درجة عسكرية في البلاد، ولكنه بعد وفاة ملك سيام هاجر إلى الدولة المجاورة « ليجول » وأصبح زعيما هناك أيضا، واستطاع ناجاماسا أن يحكم قبضته على « ليجول »، ولكن أثناء زعامة ناجاماسا لهذه البلاد هوجمت من بلد مجاورة، ولم يتوان ناجاماسا عن الدفاع عن ليجول ووقف في الصفوف الأولى يحارب بشجاعة، وأصابه في هذه الموقعة جرح في قدمه، وظل الوصي على العرش الذي أصبح ملكا للبلد التي هرب منها ناجاماسا يحيك المؤامرات من أجل قتل ناجاماسا، فبعث له بالهدايا الكثيرة، ولكنه في الخفاء كان يدبر له مؤامرة قتله فأوعز لتابع مقرب من ناجاماسا أن يضع لاصقة طبية مسمومة على الجرح الذي كان يعاني منه ناجاماسا في قدمه فمات مسموما في عام ١٦٣٠م.

وهكذا نرى كيف نشط اليابانيون في أوائل القرن السابع عشر وكيف عمل إيباسو وخليفته هيدي تادا على فتح أبواب اليابان للوكالات التجارية الأجنبية، ولم يُقتصر إيباسو وهيدي تادا تصاريح الباكفو التجارية على اليابانيين فقط بل أعطوها أيضًا لعدد من التجار الأجانب المقيمين في اليابان مثل وليام آدمز وغيره، مما يدل على معاملة الباكفو الجيدة للأجانب خلال الثلاثين عاما الأولى من عهد الباكفو.

والى جانب ذلك حاز العمال والصناع اليابانيون على سمعة عالمية كونهم مهرة ومجتهدين في عملهم لدرجة أن هولندا استعانت بالكثير من هؤلاء الصناع والعمال المهرة من نجارين وحدادين ونقاشين وغيرهم من الصناع والعمال، وقامت من أجل ذلك بالحصول على إذن الباكفو وأرسلتهم إلى مدينة باتابيا في هولندا، وفي هذا الصدد نجد أن رئيس

الوكالة التجارية الهولندية فى مدينة هيرادو اليابانية يصرح بالآتى :  
«إن اليابانيين أذكىء، وفوق ذلك فهم كعمال مجتهدون ويعملون بجد،  
وهم كجنود يتميزون بالشجاعة وإلى جانب ذلك فهم لا يحصلون على  
رواتب عالية، هكذا أرسل هذا المدير برسالة إلى المسئولين فى بلده  
ممتدحا اليابانيين بشدة، ولكن لأن دوام الحال من المحال فقد تغيرت  
سياسة الباكفو الانفتاحية على العالم لتبدأ سياسة أخرى مغايرة تماما  
تعتمد على إقصاء اليابان وإبعادها عن العالم الخارجى وعزلها وكذلك  
إبعاد الأجانب عن اليابان بما عرف بسياسة العزلة وهذا ما سوف  
نتعرف إليه من خلال السطور التالية.

#### ٥- بداية تطبيق سياسة العزلة :

اعتاد الساسة اليابانيون منذ عهد هيديوشى أن يطلقوا دعاوى مفادها  
أن المبشرين بالمسيحية يأتون لليابان من أجل نشر تعاليم ديانتهم وأنهم  
يعملون على زيادة عدد المؤمنين بها حتى يستعملوهم من أجل إحداث  
مؤامرات ضد اليابان ويشتركوا مع الجيوش الآتية من الدول المسيحية  
حتى يتم فى النهاية احتلال اليابان، وهذه الدعاوى كانت على غير  
أساس من الصحة على الإطلاق.

ولكن هذه الدعاوى تكررت على لسان هولندا، وذلك أن كلا من  
البرتغال وأسبانيا يخططان لاحتلال الأراضى اليابانية، وفى هذه الأثناء  
كان إيباسو قد حرم انتشار المسيحية ولكنه بسبب ولعه بأرباح التجارة  
مع الدول الغربية غض النظر عن هذا الانتشار الذى وصل بعدد المسيحيين  
اليابانيين إلى سبعمائة ألف شخص وذلك حوالى عام ١٦١٠م، وعليه فقد

أصدرت حكومة الباكفو أمرا بتحريم المسيحية في كل أنحاء البلاد في عام ١٦١٣م وقد طبق هذا الفرمان بحزم وشدة وتم بموجبه هدم الكثير من الكنائس والقبض على المبشرين والمؤمنين بالمسيحية وعقابهم عقاباً شديداً ورغم صدور هذا الفرمان الحازم، إلا أن هذا لم يمنع من دخول المبشرين الأجانب خلسة إلى اليابان، ولذلك قامت حكومة الباكفو في عام ١٦١٦م بقصر دخول السفن الأوروبية التجارية على مينائي ناجاساكي وهيرادو فقط حتى يتم التحكم في هذه السفن ومرتاديها وفي عام ١٦٢٤م تم منع دخول السفن الإسبانية إلى الموانئ اليابانية تماما.

ومع مرور الأعوام ازدادت سياسة الباكفو عنفاً وقسوة نحو المؤمنين بالمسيحية وكانت دائماً ما تود لو أنها اقتلعت جذور هذا الإيمان تماماً من قلوب المؤمنين به. فابتدعت أساليب قاسية من التعذيب حتى تجعل هؤلاء المؤمنين يرجعون عن إيمانهم، فكانت تربطهم إلى الأعمدة وتحرقهم أحياء، وبرغم قسوة هذه الإجراءات لم ينقطع قدوم المبشرين سرا من مانيلا وماكاو وغيرها من البلاد لنشر هذا الدين.

وفي عام ١٦٢٢م انتهزت حكومة الباكفو فرصة تنازع وتنافس الوكالتين التجاريتين التابعتين لكل من إنجلترا وهولندا في ميناء هيرادو وذلك من أجل الحصول على الأرباح التجارية وامتيازاتها، وقامت بغلقها وكانت حجتها في ذلك أنه بذلك الصراع بين الوكالتين فإنه يصبح من المستحيل ممارسة الأعمال التجارية، وفي العام التالي تم منع السفن التجارية اليابانية من الإبحار إلى مانيلا وذلك عندما لم تحقق سياسة القمع نحو المؤمنين بالمسيحية ونحو المبشرين أية نتائج ملموسة، وبرغم ذلك لم يقل عدد المؤمنين بها وكذلك لم ينقطع عبور المبشرين

من مانيلا إلى اليابان، وعندما أرسل زعيم مانيلا فى عام ١٦٢٤م رسولا لليابان راجيا استعادة التجارة معها ، تم طرد هذا المبعوث بكل البرود من قبل الباكفو.

وهكذا تعددت الأوامر الصادرة من الباكفو من أجل تقليل وتقييد حركة التعامل التجارى مع الدول الأجنبية وكذلك العلاقات معها بشكل عام حتى تم إصدار قرار الباكفو بمنع السفن الأخرى غير سفن التصاريح الحمراء من الإبحار إلى خارج اليابان وذلك فى عام ١٦٣٣م، وفى عام ١٦٣٥م صدر قرار الباكفو بمنع اليابانيين الذين كانوا يعيشون بالدول الأجنبية من العودة لليابان، وأن يتم إعدام من يخالف هذا الأمر، ثم اتجهت الباكفو لتطبيق هذه الأوامر حتى وصل الأمر إلى منع اليابانيين من السفر إلى الخارج أو العودة إليها تحت أى ظرف من الظروف، وهكذا تم تدمير حركة التجارة الخارجية التى كان عمادها سفن التصاريح الحمراء التى شهدت ازدهارا كبيرا لعدة سنوات، وهكذا تم البدء فى تنفيذ سياسة العزل.

ولكن ما هى الأسباب التى جعلت حكومة الباكفو فى إيدو (طوكيو الحالية) لأن تطبق سياسة العزلة، أولا لدعم النظام الإقطاعى التى عولت عليه الباكفو كثيرا لتأسيس دعائم نظامها ، وكذلك للتخلص من موجة الإيمان بالمسيحية التى رأت فيها عائقا ومضايقة لسياستها ، وأيضا لإضعاف العلاقات التى بدأت تظهر بين دايميوات غرب اليابان وتجار سفن التصاريح الحمراء ، وقد رأت حكومة الباكفو أنه بدلامن ترك التجارة الخارجية فى يد التجار والدايميوات تستطيع هى أن تتحكم فى هذه التجارة مما سوف يكون له أثره فى تقويتها، وإلى جانب

ذلك تكررت نصائح الهولنديين للباكفو بأن الإيمان بالمسيحية لن يكون في صالح اليابان وذلك حتى تستحث الباكفو لإيقاف رحلات سفن التصاريح الحمراء لكون هذه السفن هي المنافس الأكبر للسفن الهولندية ، وبالفعل أدت كل هذه العوامل السابق ذكرها إلى اتخاذ حكومة الباكفو عدة إجراءات صارمة لتطبيق سياسة العزلة.

وكانت البداية الفعلية لتطبيق سياسة العزلة عندما قامت حكومة الباكفو بإنشاء جزيرة دشيمو ومعناها الجزيرة الخارجية ، في ميناء ناجاساكي عام ١٦٣٤م ، وذلك بردم البحر في هذه المنطقة ، وكانت مساحتها ثلاث عشرة ألف ومائة متر مربع ، وكان الهدف من إنشاء هذه الجزيرة هو عزل البرتغاليين بعيدا عن مدينة ناجاساكي ومنع اتصالاتهم بأهالي المدينة وكذلك حتى تتم عملية مراقبتهم بطريقة شديدة وصارمة وقد بُدئ بسكنى الهولنديين في هذه الجزيرة منذ عام ١٦٣٩م ، وكان بها حوالي أربعين مبنى ، ولم يكن يعيش بها في البداية سوى ثلاثة عشر هولنديا وكانت للجزيرة أبواب تغلق وعليها حراسة مشددة ، ولم يكن من حق الهولنديين قاطني الجزيرة مغادرتها ، وكان يسمح لمدير الوكالة التجارية الهولندية المعين جديدا بمغادرتها مرة واحدة في السنة لتقديم التحيات للشوجون في مدينة أيدو ، هكذا كان وضع الهولنديين الذين اعتبروا مميزين من بين الأجانب الذين تعاملوا مع اليابان في تلك الفترة.

وبعد ثورة شيمابارا التي سوف يأتي الحديث عنها لاحقاً ، ازداد حذر حكومة الباكفو أكثر وأكثر نحو المسيحيين ، وكانت هذه الثورة قد اندلعت في شبه جزيرة شيمابارا فيما بين عامي ١٦٣٧م و١٦٣٨م ، وفي

عام ١٦٣٩م منعت الباكفو السفن البرتغالية من الإبحار لليابان، ثم فى عام ١٦٤١م نقلت الباكفو الوكالة التجارية الهولندية من ميناء هيرادو إلى جزيرة دشيما التى تحدثنا عنها للتو، والتى كان وضع الهولنديين فيها متأزما بالمقارنة مع ميناء هيرادو المفتوح نسبياً، وبذلك تم منع الاتصالات البحرية مع البلد الوحيد الأوروبى الذى ظل يتعامل مع اليابان ليتم وضعهم تحت الرقابة المشددة والعنيفة التى كانت تقوم بها مدينة ناجاساكي.

وهكذا تم تقييد حركة التجارة الخارجية والتى شهدت حركة نشطة فى شرق آسيا، ولم يكن هذا التشديد يمارس على السفن الإسبانية والبرتغالية والإنجليزية والهولندية فقط بل مورس أيضاً على السفن اليابانية ذاتها، ولكن الغريب أن الباكفو على العكس من ذلك أرادت أن تستعيد علاقاتها مع الصين فحاولت توسيط كل من كوريا وريوكيو من أجل ذلك، ولكن هذه المحاولة رفضت من جانب الصين، وفى هذه الفترة كانت تجارة الصين الخارجية لا تقل شأنًا عن مثيلتها الأوروبية ولذلك كانت السفن الصينية تأتى إلى كل موانئ جزيرة كيوشو، ولكن ولأن العلاقة الدولية بين الباكفو والصين كانت مقطوعة فقد سمحت الباكفو بنوع من التجارة الخاصة مع السفن الصينية تم قصره على ناجاساكي فقط، وهكذا فقد تم تطبيق سياسة العزلة (Sakoku) من قبل حكومة الباكفو ولم يمض على بدء عهد الطوكوجاوا سوى سنوات قليلة ليتم عزل اليابان عن العالم الخارجى، اللهم من محاولات فردية قام بها مغامرون وعلماء للاتصال بالعالم الخارجى وخاصة الغربى واستمرت هذه السياسة مطبقة حتى قبيل انتهاء عهد الطوكوجاوا أو بالأحرى عصر إيدو.

## ٦- ثورة الفلاحين فى شيمابارا :

وشيمابارا هى شبه جزيرة تقع فى جزيرة كيوشو إحدى الجزر اليابانية الأربع الكبرى، وقد حدثت بها وبجزيرة أماكوسا المجاورة ثورة عامرة للفلاحين على حكام الجزيرتين فيما بين عامى ١٦٣٧م و١٦٣٨م وذلك بسبب الضرائب العينية الباهظة التى فرضت عليهم ولم يستطيعوا تحملها، وذلك على الرغم من أن الجزيرتين كانتا تعانيان من المجاعة، فكان هذا ما زاد الطين بلة، وإلى جانب ذلك قمع الحكام للمسيحيين اليابانيين قاطنى الجزيرتين والذين كانوا يمثلون معظم سكان الجزيرتين حيث كانت المسيحية قد دخلت إلى هذه المناطق من جزيرة كيوشو منذ زمن بعيد.

بدأت أحداث الثورة فى نوفمبر ١٦٣٧م عندما تجمع ما يقرب من ٣٧ ألف من فلاحى شيمابارا فى قلعة هارا القديمة، ولأن غالبيتهم كانوا من المسيحيين فقد رفعوا الصليان والأعلام المسيحية ووقفوا أمام جيش عرمرم مكون من ١٢٠ ألف جندى أعدتهم الباكفو لإخضاع هذه الثورة، وقد أجبرت حكومة الباكفو الدايميووات فى كل أنحاء كيوشو لأن يجمعوا هذا العدد الكبير من الجنود، ولكن هذا الجيش العظيم لاقى مقاومة شديدة أدهشت الباكفو.

كانت الباكفو قد عينت حاكما جديدا على شبه الجزيرة التى كان الإيمان بالمسيحية متجذرا بها، وهذا الحاكم لم يكن مسيحيا وهو ماتسوكورا شيجى ماسا Matsukura Shigemasa (؟ - ١٦٣٠م) وعينت على جزيرة أماكوسا حاكما جديدا أيضا لم يكن مسيحيا أيضا وهو تراساوا هيروتاكا Terasawa Hirotaka (١٥٦٣م - ١٦٣٣م) وكلاهما

مارس قمعا شديدا على مسيحيي الجزيرتين وفرضا ضرائب عينية باهظة كما ذكرنا آنفا، مما حدا بالفلاحين إلى ثورتهم العارمة، وقد أعطوا قيادة ثورتهم إلى شاب صغير لا يتجاوز عمره ستة عشر سنة يُدعى ماسودا شيروتوكى سادا Masudashiro Tokisada (؟ - ١٦٣٨م) وقد اعتقد الفلاحون في الجزيرتين الثائرتين أن هذا الشاب بعثه الله كمخلص لهم من الآلام والعذاب الذين يتجرعونهما، ويبدو لنا هنا من الوهلة الأولى تأثر هؤلاء الفلاحين بقصة وتجربة السيد المسيح، وربما يرجع هذا إلى عادة متأصلة في اليابانيين منذ الأزل في إعادة إنتاج التجارب والأشياء بوحى من فكرهم الخاص، حتى لو تمثل ذلك في ذلك الصبي الصغير.

على أية حال فقد فشل القائد الأول الذى أرسله الباكفو وكان يدعى إيتاكورا شيجى ماسا Itakura Shigemasa (١٥٨٨م - ١٦٣٨م) فى إخماد الثورة وتوفى أثناء هجومه على أطلال قلعة هارا التى تحصن بها الثوار، ثم أرسلت حكومة الباكفو مستشار الشوجون ماتسودايرا نوبوكاتسو Matsudaira Nobukatsu (١٥٩٦م - ١٦٦٢م) الذى استطاع قيادة نحو ١٢٠ ألفا من الجنود وحاصر القلعة وقام بشن حرب تجويع ضد الثوار حتى يموتوا جوعا، بل إنه طلب من السفن الهولندية ضرب القلعة التى يتحصن بها الثوار من البحر بالمدافع، وقد استمر هذا الحصار والمقاومة من الثوار حوالى أربعة أشهر حتى سقطت فى النهاية القلعة وتم إخماد الثورة عن طريق جيش الباكفو الضخم وكذلك تحت وطأة مدافع الهولنديين الذين عادوا إلى هيرادو بعد إتمام مهمتهم التى أوكلها لهم نوبوكاتسو، ولكن كانت نتيجة هذه الثورة مفرجة بكل المقاييس فقد قتل القائد الشاب توكى سادا مع العديد من الجنود الذين قاوموا حتى

النهاية ، ولم ينج من الموت ممن بقوا على قيد الحياة لأنهم قتلوا عن بكرة أبيهم سواء كانوا رجالا أو نساء أو أطفالا .

وبالطبع كان لثورة فلاحى شيما بارا المسيحيين الأثر الكبير فى سياسة الباكفو نحو المسيحية فقد اعتبرت أن القيام بالثورات هو فعل أصيل من أفعال المسيحية وعليه أخذت تشدد من قمعها وضغطها على المسيحيين ، وكان أكثر صور القمع شهرة هى إذلال المؤمنين بالمسيحية عن طريق صنع لوحه من النحاس الأصفر ونحتوا عليها صورة السيد المسيح أو السيدة مريم ثم إرغام المسيحيين بوطأها بأقدامهم مما كان يؤلم المؤمنين بالمسيحية أيضا إيلام ، وكانوا عن طريق هذه الوسيلة يكشفون عن هوية اليابانى إذا ما كان مؤمنا بالمسيحية أم لا من تعبيرات وجهه وبذلك يبدأون فى معاقبته وإيذائه ، وكان هذا الإجراء يتم بصور شائعة ومتكررة فى مناطق شمال جزيرة كيوشو ، وذلك لكثرة المؤمنين بالمسيحية هناك .

كذلك ومن أجل الإمعان فى تحريم الإيمان بالمسيحية فقد أحدثت حكومة الباكفو فى ١٦٤٠م وظيفة خاصة للتأكد من مذهب اليابانيين الدينى ، فكان يبحث فى هذا الأمر موظف خاص ، وذلك حتى يمنع اليابانيين من الإيمان بالمسيحية وفى عام ١٦٦٤م تم تعميم هذه الوظيفة فى كل أنحاء البلاد .

وفى الحقيقة لم تكن المسيحية فقط هى التى تلقت معاملة سيئة من الباكفو ولكن كان هناك مذاهب معينة فى البوذية تتلقى نفس المعاملة مثل طائفة نيتشيرين شو Nichirenshū وطائفة أخرى متفرعة عن الطائفة السابق ذكرها ، وذلك لأن هذه الطوائف تعظم من قيمة الدين والإيمان أكثر من قيمة وأهمية الباكفو والسلطات المحلية .

وكان من نتائج ثورة شيمابارا كذلك منع حكومة الباكفو للسفن البرتغالية منعا باتا من الإبحار فى الموانئ اليابانية وذلك فى عام ١٦٣٩م لتكتمل عملية العزلة كما ذكرنا آنفاً، ثم قامت حكومة الباكفو بنقل الوكالة الهولندية التجارية من مدينة هيرادو إلى جزيرة دشيما التى طرد منها البرتغاليون ومارست رقابة صارمة على الهولنديين وتجارتهم، وهكذا لم يبق فى اليابان سوى مكانين فقط تطل من خلالهما اليابان على العالم وهما دشيما حيث يوجد الهولنديون وناجاساكي حيث كانت تأتى السفن الصينية إليها.

وتختلف الآراء حول جدوى العزلة التى فرضتها اليابان على نفسها طواعية فهناك الرأى الذى يقول إنها كانت مائتتى عام أبعدت اليابان عن تقدم العالم فكانت فترة سلبية بالنسبة لليابان، والرأى الآخر الذى يقول إنها مائتتى عام من الهدوء والسلام، والباحث من وجهة نظره كمصرى رأى مصر تعانى من أطماع الاستعمار الغربى وغير الغربى يجد أن العزلة وإيجابياتها قد أتاححت لليابان فرصة جيدة لأن تبعد بنفسها عن الأطماع الاستعمارية وكذلك الاحتفاظ بهوية اليابان نقية، الشئ الذى جعلها عندما أرادت الانخراط فى العالم الحديث وتوجهها نحو الغرب، أن تبدأ بداية قوية كما أوضحنا فى كتابنا «تاريخ اليابان فى عصر فيجى» ولم تعان من التدخلات الأجنبية ومطامع الاستعمار كما عانت مصر، وكان هذا أحد الأسباب التى من أجلها انطلقت النهضة اليابانية انطلاقاً قوية ومستمرة حتى يومنا هذا، فى حين تعثرت النهضة فى مصر كثيراً برغم بدايتها قبل النهضة اليابانية بنحو خمسين عاماً. ومهما قيل عن عزلة اليابان فإنها فى الحقيقة لم تكن عزلة

مائة بالمائة فقد كان هناك عدد من العلماء الذين أبوا على أنفسهم أن يستسلموا لأمر العزلة وقاوموها وعملوا على اقتباس العديد من مظاهر الحضارة الغربية والأخذ عنها وخاصة في مجال الطب ، وهذا ما سوف نتناوله بالتفصيل من خلال الفصل الثامن بإذن الله .

## ٧- الأوضاع في الريف والحضر :

لم يكن المشهد الذي رأيناه من معاناة الفلاحين في شبه جزيرة شيمابارا وجزيرة أماكوسا سوى واحد من عشرات بل مئات المشاهد التي تكررت في كل أنحاء اليابان تقريبا، ولكن بالطبع كانت النهاية المأساوية التي انتهت إليها معاناة الفلاحين في شيمابارا نهاية غير مسبوقه في كل اليابان، فقد قامت في كل أنحاء البلاد ثورات فلاحية عديدة ضد حكومة الباكفو وضد الحكام المحليين بسبب المعاملة السيئة وفرض الضرائب المتسفف الذي أرهق الفلاحين أيما إرهاب.

فقد اقتدى معظم حكام عصر إيدو بمقولة مؤسسة «إيباسو الشهيرة» احصل على الضرائب من الفلاح بحيث لا تجعله يموت ولا تجعله يعيش وقد قام بشرح هذه المقولة بالتفصيل مستشار إيباسو هوندا ماسانوبو Honda Masanobu (١٥٣٨م - ١٦١٦م) للشوجون الثاني هيدي تادا قائلاً: «إن الفلاح هو أساس الدولة ، ومن أجل التحكم في الفلاحين يجب أولاً فحص إنتاج حقول كل فلاح كل على حدة بطريقة حازمة ويجب إبقاء ما يكفيه بالكاد لسنة واحدة من الطعام والبذور والثمار، وما زاد عن ذلك يؤخذ منه كضرائب عينية، ولا يجب إبقاء لدى الفلاح ما يزيد عن حاجته، فقط ما يكفيه لكي يعيش على الحافة لدرجة أن لا تبقى لديه شيء».

ونندهش من هذه النظرة الانتقامية من قبل الحكام نحو الفلاح على الرغم من أنه وُضع في النظام الإقطاعي الذي طبقه إيباسو وخلفاؤه في المرتبة الثانية بعد المحاربين مباشرة كما ذكرنا آنفاً، واعتبره الحكام كنز البلاد، إلا إننا يمكن بتعبير آخر أدق يمكن أن نعرف قدر الفلاح فى أعين الحكام وهو أنهم اعتبروه كالبقرة الحلوب، وقد صدرت عدة فرمانات من أجل إجبار الفلاح على دفع الضريبة العينية وكذلك إلزامه بأسلوب معين فى الحياة، إلا أن أشهر هذه فرمانات كان فرمان عام ١٦٤٩م ويطلق عليه كيان نوأفورى جاكى Keian Noofuregaki نسبة إلى الفترة التقيومية التى صدر فيها هذا فرمان أى فى عهد الشوجون الثالث إيبيميتسو وقد صدر هذا فرمان بعد مجاعة كائى التى حدثت فى عام ١٦٣٠م وكذلك بعد عدة حوادث جعلت الباكفو تفكر جيداً من أجل تنظيم حياة الفلاح وإعطاءه عدة نصائح أو بالأحرى أوامر لا بد وأن يتبعها حتى يستطيع إنتاج أكبر قدر من المحاصيل فتزيد بالتالى الضرائب العينية التى كانت تحصل عليها الحكومة والتى كانت تزيد على أكثر من نصف الإنتاج الكلى للفلاح ومن ضمن هذه التعليمات والأوامر التى جاءت بهذه اللائحة ما يلى :

١ - على الفلاح أن يستيقظ مبكراً، وينظف الأرض من الحشائش، وعند الظهيرة يقلح الأرض، وفى المساء يجدل الحبال ويصنع الأجولة، وعليه أن يفعل كل هذه الأعمال بجد ونشاط.

٢ - على الفلاح ألا يشرب الخمر أو الشاى.

يجب على الفلاح الذى لديه الزوجة الجميلة التى تشرب الشاى بكثرة أن يطلقها ويقطع علاقته بها تماماً.

٣ - يجب أن تكون ملابس الفلاح مصنوعة من القطن أو الكتان ويكون لونها إما أسود أو كحلي.

هكذا نرى أن الفلاحين في عصر إيدو لم يعانون فقط من كثرة الضرائب وقسوة الحكام فقد بل إنهم عانوا أيضاً من القيود التي كانت تفرض على حياتهم اليومية لدرجة أنهم كانوا لا يستطيعون التدخين أو صنع الطعام الياباني المشهور المصنوع من الأرز الأبيض «نيجيري مشى» والذي كانوا يحبونه ، فكان عليهم أن يتناولوه في الخفاء، ولكن ماذا لو لم يتبع الفلاح هذه التعليمات أو إذا لم يسدد الضرائب التي تطلبها السلطات ، الحقيقة أنهم كانوا يُعاقبون أشد العقاب، فمثلاً كانت زوجة الفلاح وأولاده يؤخذون منه ، ويصبحوا خدماً لدى الحاكم ، أو كانوا يغرقون في المياه الباردة، أو أن يوضع الفلاح على حصان خشبي ذي حافة شديدة الانحراف وتعلق في قدميه أثقال شديدة حتى يزيد ذلك من شعوره بالألم.

ولكن عندما كانت الضغوط تزيد عن حدها من فرض ضرائب وتعذيب شديد ولم يعد الفلاحون يستطيعون التحمل ، فكانت الهوجات والثورات تهب بشدة ضد الحكومة ، كذلك كان الفلاحون يتشاورون فيما بينهم ثم يقررون ترك أراضيهم ويهربون إلى أماكن أخرى بعيدة.

وبرغم الظروف القاسية التي كان يعاني منها الفلاحون من ضرائب باهظة وقلّة إنتاج الحبوب أو الكساد الشديد والمجاعات الكثيرة التي كانت تهاجمهم من وقت لآخر إلا أن هذا كله لم يمنع الفلاحين من الاستمتاع ببعض الأوقات خلال السنة الواحدة مثل سعادتهم بقدم السنة الجديدة وصنعهم كعكة الأرز معاً وشرب خمر الساكي الياباني

الشهير، وكذلك باحتفالهم بعيد الأوبن (Obun Matsuri) فى الصيف والرقص معا فى هذا العيد، والغريب أن هذا العيد هو فى الأصل احتفالا بالموت والأموات، ولذلك يزور اليابانيون خلاله مقابر موتاهم، ولكن هذا لم يمنعهم من الاستمتاع به.

أما سكان المدن (Chonin) فهم هؤلاء التجار والموظفون والحرفيون الذين كانوا يسكنون المدن، وبالتحديد أكثر فهم هؤلاء الذين كانوا يملكون بيوتا أو قصورا فى المدينة، هؤلاء فقط كانوا يعترفون بهم أنهم تشونين (سكان المدن) ذلك لأنه كان هناك الكثير من الناس من يستأجرون بيوتا أو أراض فى المدن، فهؤلاء ليسوا مدنيين ويقال إنه كان هناك حوالى ٦٠٪ من مجموع سكان المدن الكبرى فى عصر إيدو مستأجرين للبيوت. وقد شكل سكان المدن حوالى ١٠٪ من المجموع الكلى للسكان فى عهد إيدو، وقد تطورت المدن فى عصر إيدو تطورا كبيرا عن مثلتها فى عصر الحروب الذى سبق عصر إيدو، فقد ظهرت وبصفة أساسية المدن القلاعية ثم المدن الملاحية والمدن ذات الطبيعة السياحية (الفندقية) ثم المدن الدينية. وإذا ذُكرت كلمة مدينة أو سكان المدينة فى عصر إيدو فإن التفكير يذهب بالأساس نحو مدينة إيدو وسكانها وهى مدينة قلاعية أسسها طوكوجاودا إيباسو، ومن مميزات هذه المدينة أن ٦٠٪ من مساكنها كانت بيوتا أو قصورا للمحاربين و٢٠٪ منها بيوت أو قصور للتجار ونسبة الـ ٢٠٪ الباقية من المباني فكانت عبارة عن معابد بوذية وشتوتوية.

أما بالنسبة لحرفيي عصر إيدو فكانوا نوعين الأول وهم هؤلاء الذين كانوا يعملون لحساب الباكفو والدايميوات وغيرهم من حكام المدن وكانوا

ذوى حظ وافر حيث حصلوا على العطايا والقصور أما النوع الآخر من الحرفيين فهم هؤلاء الذين كانوا يعملون لصالح عامة الناس، وكانوا فى الغالب يعيشون متكئين فى مكان بعينه من المدينة القلاعية، وكان لكل حرفة نقابة خاصة أو رابطة ترعى مصالح أعضائها وتراقبهم فى ذات الوقت. فلم يكن الحرفيون يعملون بكامل حريرتهم، وكان لابد للحرفى أن يتبع رئيس ما لمدة سبع سنوات أو عشر سنوات، ويتلقى أوامره خلال تلك الفترة، وخلال تلك السنوات لم يكن يُسمح للتلميذ الحرفى أخذ أى نوع من الأجازات المسموح بها حتى للخادم، وإذا انتهى الحرفى من هذه الفترة فإنه ينضم للنقابة ويُعترف به كحرفى محترف. والتجار كذلك مثل الحرفيين كونوا النقابات والطوائف التى تجمعهم وكما الحال فى الحرفيين فقد كان على الشخص الذى يريد أن يصبح تاجرًا أن يتبع أستاذًا معينًا. وهو ما يزال فى سن العاشرة، وأن يلتحق ببيت تاجر ويعمل ويخدم فى هذا البيت حتى يستطيع أن يصبح تاجرًا محترفًا، ولا بد لهذا المتدرب أن يحصل على إذن من البيت أو السيد الذى يتدرب لديه أو بالأحرى يخدم به حتى يستطيع أن ينتقل لمكان أو لأستاذ آخر، وعليه أن يصبر على تحمل المعاملة السيئة حتى يقضى الله أمرًا كان مفعولًا، وربما من هذا المنطلق تولدت روح المثابرة والتحمل لدى العمال والموظفين فى اليابان إلى يومنا هذا.

وإذا كان الحديث عن المدن وسكانها فى عصر إيدو فهو ينسحب كذلك على مدينتين أخريين غير مدينة إيدو وهما أوساكا وكيوطو، والمدن الثلاث يطلق عليهن اصطلاح تاريخى هو Santo أى المدن الثلاث وتميزهن عن باقى المدن اليابانية، فإذا كانت إيدو هى مركز السياسة

فى اليابان آنذاك فإن أوساكا كانت تعتبر مركز التجارة، وكيوطو مركز للديانات والعلوم والفنون وذلك لأنها كانت مدينة تراثية عريقة أما مدينة أوساكا فقد اعتبرت منذ وقت مبكر «مطبخ اليابان» وذلك لأنها كانت مكان لتجميع المواد التجارية من كل أنحاء منطقة غرب اليابان، ومنطقة هوكوريكو (محافظات طوياما وإيشيكاوا وفوكوى ونييجاتا) فقد ازدهرت كمدينة تجارية كبرى، وبسبب تجمع الكثير من الوكالات والمخازن التجارية التى تخزن بها أرز الضريبة العينية ومختلف المواد الأخرى فقد أطلق عليها لقب المخزن «Kuramono»، وقد انتقلت بعد ذلك تلك الوكالات التجارية والمخازن إلى مدينة إيدو وغيرها من المدن فى كل أنحاء اليابان إلا أن الكثير من أصحاب هذه الوكالات والمخازن ظلوا يسكنون فى أوساكا نظرًا لأهميتها التجارية.

أما مدينة كيوطو فقد كانت منذ القدم قصرًا للإمبراطور ولأمرء وكذلك تجمعت بها المقرات الرئيسية للمعابد سواء البوذية أو الشنتوية، وشىء آخر ميز مدينة كيوطو عن غيرها ألا وهو وجود المحلات التى تبيع الملابس غالية القيمة وغالية الأثمان التى اشتهرت بها مثل منسوجات نيشيجين Nishijinori ومصبوغات كيوطو Kyozone وغيرها من المنسوجات التى اشتهرت بها كيوطو قديمًا وحتى اليوم، وكانت معظم ملابس ومنسوجات الباكفو والدايميووات من إنتاج مدينة كيوطو التقليدية.

\* \* \*